عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد اللّه بن طاهر حين ولاه المأمون الرقة ومصر

أ.د. عيسى علي العاكوب(*)

- في سِياق الموضوع:

عرَفتِ الثّقافةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ جِنساً أدبيًّا ذا أهمّيّة خاصّة في موضوعه وتأثيره وصلته بالحياة العامّة والخاصّة، وذلكم هو «أدَبُ سياسةِ الـمُلوك» أو «الآدابُ السُّلْطانيّة» أو «نصيحةُ الـمُلوك». والظّاهرُ أنّ تاريخَ هذه الثّقافة وَرِثَ مصنّفاتٍ وآثاراً ممّا يتّصلُ بهذا الجِنْس مِن ميراثِ الأمم السّابقة التي كان لها أن تَدخُلَ في دين الله أفواجاً وأفراداً في العهود الأولى، كما هي الحالُ في كتابِ «عَهْد أرْدَشير» الفارسيِّ السّاسانيّ للمُلوكِ الآتينَ مِن بعْدِه، الذي حقّقَه الأستاذُ الدّكتور إحسان عبّاس، رحِمَه اللهُ، وأحاط إخراجَه باهتمامٍ جيّد جعَلَ إطارَهُ ومادّتَه في مُتناوَل الدّارسينَ، وأصدرَتْه دارُ صادر في بيروت سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٧م. وقد أنزلتِ الثّقافةُ العربيّةُ الإسلاميّة هذا الجَنسَ الأدبيَّ مُنزَلاً عَلِيًّا، إذ نراهُ يَبرزُ في صُورةِ تيّارٍ واضحِ المعالِمِ في نَهْرِ هذه الثّقافة. وقد استَعْلَنَ هذا التّيّارُ في طائفةٍ مِن المصنَّفاتِ المتخصِّصةِ بموضوعه، وفي

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

مقبوساتٍ مِن أصولٍ سابقةٍ للإسلام تَلْحظُها أبصارُ الدّارسينَ في كثيرٍ مِن مصادر التّراثِ الأدبيّ، التي تنتمي إلى صِنفِ الاختيارات.

ومِن الآثار التي تجتليها البصائرُ في جُمْلةِ المؤلَّفات العربيّة في «أدَب سياسةِ المُلوك» ذلك الكتابُ أو العَهْدُ الذي كتبَهُ طاهِرُ بنُ الحُسَين (ت ٢٠٧هـ) لابنِه عبدِ الله بنِ طاهر (ت ٢٣٠هـ) حينَ ولّاهُ الخليفةُ العبّاسيّ المأمونُ (١٧٠ - ٢١٨هـ) الرَّقّةَ وديارَ مُضَر، قاصِداً أن يضعَ بينَ يدَي ابنِه دُستوراً مُختصَراً في أصولِ الحُكْم وإدارةِ شؤون العبادِ والبلاد. وكُنّا قد نَشَرْنا في عددٍ سابقٍ(١) مِن أعدادِ مجلّةِ مَجْمعِنا الكريم هذه بحثاً مستفيضاً عنوانُه: «القرآنُ الكريمُ وأدَبُ السّياسةِ الملوكيّة العربيُّ - قراءةٌ في عَهْدِ طاهرِ بن الحُسَيْن لابنِه عبدِ الله بنِ طاهر»، تناوَلْنا فيه موضوعَ العهودِ والوصايا ونصائحِ الملوك في الأدَب العربيّ القديم، وعَرّفْنا ثَمّةَ بطاهرِ بنِ الحُسَيْن، وبابنِه عبدِ الله، وبهذا العهد الذي كتبَه طاهِرٌ لابنِه عبدِ الله. ولأنّ الأمرَ كذلك، رأينا أن نكتفيَ هنا بأن نُقدِّمَ للقارئ الكريم قراءةً اجتهَدْنا في أن تأتي صَحيحةً، ضابِطةً، مُطابقةً قدرَ المُستطاعِ لأَصْلِ العهد كما كتبَه مؤلِّفُه، وذلك اعتماداً على رِوايتَي الكتابِ أو العهد اللّتَيْنِ وقعْنا عليهما في تاريخِ الطّبريّ (جـ ٦/ ٢١١ نشْرة دار القلم في بيروت) ومقدِّمةِ ابنِ خَلْدون (جـ ٢/ ٧٢٤، نَشْرة علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ٢٠٠٤م).

وابتغاءَ مزيدِ اطّلاعٍ على كتابةِ العَهْد ومُناسَبة ذلك، وتعرُّفِ كاتبِه ومَن كُتِبَ له وأسْرتهما ونشأةِ كلٍّ منهما وكِفاياته، في مقدور القارئ الكريم العودةُ إلى بحثنا الذي أشَرْنا إليه تَوًّا. فسيجدُ ثَمّةَ كلَّ ما يُساعدُه على الإحاطة بالسّياقِ التاريخيّ والسّياسيّ والفكريّ لهذا الكتاب أو العهد، الذي

(١) مجلّة مجمع اللّغة العربيّة في دمشق، مج٨٩/ ج١.

يقرِّظُه ابنُ خَلْدون على هذا النّحو: «ومِن أحسَنِ ما كُتبَ في ذلك [السّياسة الملوكيّة] وأُودِعَ، كتابُ طاهرِ بنِ الحُسَيْن لابنِه عبدِ الله بن طاهر لَمّا ولّاهُ المأمونُ الرّقّةَ.. فكتبَ إليه أبوه طاهرٌ كتابَه المشهورَ الذي عَهِدَ إليه فيه ووصّاهُ بجميع ما يحتاجُ إليه في دولتِه وسُلْطانِه مِن الآدابِ الدّينيّة والخُلُقيّة والسّياسةِ الشّرْعيّة والـمُلوكيّة، وحَثَّه على مكارمِ الأخلاق ومَحاسِنِ الشِّيَم، بما لا يستغني عنه مَلِكٌ ولا سُوقةٌ» (مقدّمة ابن خَلْدون جـ ٢/ ٧٢٥). هذا العهدُ الذي يبدو أنّ المأمونَ طاب به نَفْساً، فأمر أن يُكتبَ به إلى عُمّاله في أصقاع الدّولة المختلفة؛ ليكونَ مِنهاجَ عمَل، ودُستورَ إدارةٍ، وضابِطَ سُلوك. وفي هذا يقولُ ابن خَلْدون: «وحَدّثَ الأخباريّونَ أنَّ هذا الكتابَ لَمّا ظهرَ وشاعَ أمرُهُ أُعجِبَ به النّاسُ، واتّصَلَ بالمأمون، فلَمّا قُرِئ عليه قال: ما أبقى أبو الطّيّب، يعني طاهراً، شيئاً مِن أمورِ الدّنيا والدّين، والتّدبيرِ والرّأي والسّياسة، وصَلاحِ الـمُلْكِ والرّعيّة، وحِفْظِ السُّلْطانِ وطاعةِ الخُلَفاءِ وتقويم الخِلافة، إلّا وقد أحكمَهُ وأوصى به. ثمّ أمرَ المأمونُ فكُتِبَ به إلى جميع العُمّالِ في النّواحي؛ لِيقتدوا به ويعمَلُوا بما فيه. **هذا أحسَنُ ما وقفْتُ عليه في هذه السّياسة**. واللهُ أعْلَمُ» (المقدّمة ٢/ ٧٣٥).

- مَتْنُ العَهْد:

بِسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم. أمّا بَعْدُ فعَلَيْكَ بِتَقْوى اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ لـه، وخَشيتِهِ، ومُراقَبتِه عَزَّ وجَلَّ، ومُزايَلَةِ سَخَطِه، وحِفْظِ رَعِيّتِكَ. والزَمْ ما ألبسَكَ اللهُ مِن العافيةِ بالذِّكْرِ لِمَعادِكَ وما أنتَ صائرٌ إليه، وموقوفٌ عليه، ومسؤولٌ عنه، والعَمَلِ في ذلك كُلِّه بما يَعْصِمُكَ مِن الله عَزَّ وجَلَّ ويُنجيكَ يومَ القيامةِ مِن عَذابِه وأَليمِ عِقابِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه قد أحسَنَ إليكَ، وأوجبَ عليكَ الرأفةَ بِمَنِ استَرْعاكَ أمْرَهُمْ مِن عبادِه، وألْزَمَكَ العَدْلَ فيهم، والقيامَ

بِحَقِّهِ وحُدودِه عليهم، والذَّبَّ عَنْهم، والدَّفْعَ عن حَريمهِم وبيْضَتِهِم، والحَقْنَ لِدمائهم، والأَمْنَ لِسَبيلِهم، وإدخالَ الرّاحَةِ علَيهم في مَعايِشِهم، ومُؤاخِذُكَ بما فرَضَ عليكَ مِن ذلك، ومُوقِفُكَ علَيه، وسائلُكَ عنه، ومُثيبُكَ علَيه بما قدّمْتَ وأخّرْتَ. ففَرِّغْ لِذلكَ فِكْرَكَ وعَقْلَكَ وبَصَرَكَ ورُؤيتَكَ، ولا يُذْهِلْكَ عنه ذاهِلٌ، ولا يشغَلْكَ عنْهُ شاغلٌ؛ فإنّهُ رأسُ أمْرِكَ، ومِلاكُ شأنِكَ، وأوّلُ ما يُوفِّقُكَ اللهُ به لِرُشْدِكَ.

- وليكُنْ أوّلُ ما تُلْزِمُ به نفسَكَ وتَنْسُبُ إليه فِعْلَكَ الـمُواظَبَةَ على ما افترضَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ علَيكَ مِن الصَّلَواتِ الخَمْسِ، والجماعةِ علَيها بالنّاس قِبَلَكَ، في مَواقيتها، على سُنَنِها مِن إسباغِ الوَضُوءِ لها، وافتتاحِ ذِكْرِ الله عَزَّ وجَلَّ فيها، ورَتِّلْ في قراءتِكَ، وتمَكّنْ في رُكوعِكَ وسُجودِكَ وتشهُّدِكَ. ولتَصْدُقْ فيها لِربِّكَ نِيَّتُكَ، واحضُضْ علَيها جَماعةَ مَنْ معَكَ وتحتَ يَدِكَ، وادأَبْ علَيها؛ فإنّها كما قال الله عَزَّ وجَلَّ تَأْمُرُ بالـمَعْرُوفِ وتنهى عن الفَحْشَاءِ وَالـمُنْكَرِ.

- ثُمّ أَتْبِعْ ذلكَ الأخْذَ بسُنَنِ رَسولِ الله ﷺ، والـمُثابَرةَ على خلائقِه، واقتفاءَ آثارِ السَّلَفِ الصّالح مِن بَعْدِه.

- وإذا وَرَدَ علَيكَ أمْرٌ فاستعِنْ علَيهِ باستخارةِ الله عَزَّ وجَلَّ وتَقْواهُ، ولُزومِ ما أنزلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في كتابه مِن أَمْرِهِ ونَهْيِهِ وحَلالِهِ وحَرامِهِ، وائتمامِ ما جاءتْ به الآثارُ عن النّبيّ ﷺ، ثُمّ قُمْ فيه بما يَحِقُّ لِلهِ علَيك.

- وَلَا تَمِلْ عن العَدْلِ، فيما أحبَبْتَ أو كرِهْتَ، لِقَريبٍ مِن النّاسِ أو بعيد.

- وآثِرِ الفِقْهَ وأهلَه، والدّينَ وحمَلَتَه، وكتابَ الله عَزَّ وجَلَّ والعامِلينَ به؛ فإنّ أفضلَ ما تَزَيَّنَ به الـمَرْءُ الفِقْهُ في دِينِ الله، والطّلَبُ لَهُ، والحَثُّ علَيهِ، والمعرفةُ بما يُتقرَّبُ به مِنه إلى الله عَزَّ وجَلَّ؛ فإنّه الدّليلُ على الخَيْرِ كُلِّه، والقائدُ إليهِ والآمِرُ به، والنّاهي عن المعاصي والـمُوبِقاتِ كُلِّها. وبِها، معَ

توفيقِ الله عَزَّ وجَلَّ، تَزْدادُ العبادُ معرفةً بـالله عَـزَّ وجَـلَّ، وإجـلالاً لَـهُ ودَرَكـاً للدَّرَجاتِ العُلَى في الـمَعادِ، معَ ما فـي ظُهـورِه للنّـاسِ مِـن التّـوقيرِ لِأمْـرِكَ، والهيبةِ لِسُلْطانِكَ، والأَنَسةِ بِكَ، والثّقةِ بعَدْلِك.

- وعلَيكَ بالاقتصادِ في الأمورِ كُلِّها، فلَيْسَ شيءٌ أبينَ نَفْعاً، ولا أحضـرَ أَمْناً، ولا أجمعَ فَضْلاً، مِن القَصْد. والقَصْدُ داعِيةٌ إلى الرُّشْـدِ، والرُّشْـدُ دَليـلٌ على التّوفيـق، والتّوفيـقُ قائـدٌ إلـى السّـعادة. وقِـوامُ الـدّينِ والسُّـنَنِ الهاديـةِ بالاقتصاد، فآثِرْهُ فـي دُنْيـاكَ كُلِّهـا. وَلَا تُقصِّـرْ فـي طَلَـبِ الآخِـرةِ، والأَجْـرِ، والأعمالِ الصّالحةِ، والسُّنَنِ المعروفة، ومَعالِمِ الرُّشْدِ؛ فـلا غايـةَ للاسـتِكْثارِ مِن البرِّ والسَّعْيِ له، إذا كان يُطْلَـبُ بـه وَجْـهُ الله تعـالى، ومَرْضـاتُه، ومُرافقـةُ أوليائه في دارِ كَرامتِه. واعلَمْ أنّ القَصْدَ في شأنِ الدّنيا يُورِثُ العِزَّ، ويُحصِّـنُ مِن الذّنوب، وإنّكَ لَنْ تَحُوطَ نفسَكَ ومَنْ يَليكَ ولا تستَصْلِحُ أمورَكَ بأفضـلَ مِنه. فَأْتِهِ، واهتدِ به، تَتِمَّ أمورُكَ وتَزِدْ مَقْدِرتُكَ، وتصلُحْ خاصّتُكَ وعامّتُكَ.

- وأحْسِنِ الظّنَّ باللهِ، عَزَّ وجَلَّ، يستَقِمْ لَـكَ رَعِيّتُـكَ، والـتَمِسِ الوسـيلةَ إليه في الأمورِ كُلِّها، تستَدِمْ به النّعمةَ علَيكَ.

- وَلَا تَتَّهِمَنَّ أحداً مِن النّاسِ فيما تُوَلِّيهِ مِـن عَمَلِـكَ قبْـلَ تكَشُّـفِ أَمْـرِه بالتُّهَمة؛ فإنّ إيقاعَ التُّهَمِ بالبُرَآءِ والظُّنونَ السّيّئةَ بهم مأثَمٌ. فاجْعَلْ مِـن شـأنِكَ حُسْنَ الظّنّ بأصحابِكَ، واطرُدْ عنْكَ سُوءَ الظّنّ بهم، وارفُضْـهُ عـنهم، يُعِنْـكَ ذلكَ على اصْطِناعِهم ورياضتهم.

- وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوُّ اللهِ الشّيطانُ في أمْرِكَ مَغْمَزاً؛ فإنّه إنّما يَكتفـي بالقليـلِ مِـن وَهْنِكَ، فيُدخِلُ علَيكَ مِن الغَمِّ في سُوءِ الظّنّ مـا يُنغِّصُـكَ لَـذاذةَ عَيْشِـكَ. واعلَـمْ أنّكَ تَجِدُ بحُسْنِ الظّنِّ قوّةً وراحةً، وتُكفَى به ما أحبَبْتَ كِفايتَه مِن أُمورِك، وتـدعو به النّاسَ إلى مَحبّتِكَ والاستقامةِ في الأمورِ كُلِّهـا لَـكَ. وَلَا يمنَعْـكَ حُسْـنُ الظّـنّ

بأصحابِكَ، والرّأفةُ برعيّتِكَ، أن تستعمِلَ المَسألةَ، والبحْثَ عن أمورِكَ، والمُباشَرةَ لِأمورِ الأولياءِ، والحِياطةَ للرّعيّة، والنّظَرَ فيما يُقيمُها ويُصلِحُها، بل لِتكُنِ المُباشَرةُ لِأمورِ الأولياءِ، والحِياطةُ للرّعيّةِ، والنّظَرُ في حوائجهم، وحَمْلُ مؤوناتِهِم، آثَرَ عنْدَكَ مِمّا سوى ذلك؛ فإنّه أقوَمُ للدّينِ، وأَحْيا لِلسُّنّةِ. وأَخْلِصْ نِيَّتَكَ في جَميعِ هذا، وتفرَّدْ بتقويمِ نفسِكَ تَفرُّدَ مَن يعْلَمُ أنّه مَسؤولٌ عمّا صنَعَ، ومَجْزِيٌّ بِما أحسَنَ، ومُؤاخَذٌ بِما أساء؛ فإنّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ جعَلَ الدّينَ حِرْزاً وعِزًّا، ورَفَعَ مَن اتّبعَه وعزّزَه. فاسْلُكْ بمَنْ تَسوسُه وتَرْعاهُ نَهْجَ الدّين وطريقةَ الهُدى.

- وأَقِمْ حُدودَ اللهِ تعالى في أصحابِ الجَرائمِ على قدرِ مَنازِلِهم وما استحقّوه، ولا تُعطِّلْ ذلكَ، ولا تَهاوَنْ به، ولا تُؤخِّرْ عُقوبةَ أهْلِ العقوبةِ؛ فإنّ في تَفريطِكَ في ذلكَ لَما يُفْسِدُ عليكَ حُسْنَ ظَنِّكَ، واعْزِمْ على أمْرِكَ في ذلكَ بِالسُّنَنِ المعروفةِ. وَجانِبِ الشُّبَهَ والبِدَعاتِ يَسْلَمْ لكَ دِينُكَ، وتَتِمَّ لكَ مُروءتُكَ.

- وإذا عاهدتَ عَهْداً فَفِ به، وإذا وَعَدْتَ الخيْرَ فأنجِزْهُ. واقْبَلِ الحسَنةَ، وادفَعْ بها. واغْمِضْ عن عَيْبِ كُلِّ ذي عَيْبٍ مِن رَعيّتِكَ. واشْدُدْ لِسانَكَ عن قَوْلِ الكَذبِ والزُّورِ، وأبغِضْ أهْلَه. وأَقْصِ أهْلَ النّميمةِ؛ فإنّ أوّلَ فَسادِ أمْرِكَ، في عاجِلِ الأمُورِ وآجِلِها، تقريبُ الكَذوبِ والجُرْأةُ على الكذبِ؛ لِأنَّ الكذبَ رأسُ المآثِمِ، والزُّورَ والنّميمةَ خاتِمتُها؛ لأنّ النَّميمةَ لا يَسْلَمُ صاحِبُها، وقائلَها لا يسْلَمُ له صاحِبٌ، ولا يستقيمُ لِمُطيعِها أمْرٌ.

- وأَحِبَّ أهْلَ الصِّدْقِ والصَّلاحِ. وأَعِزَّ الأشرافَ بالحَقّ. وواصِلِ الضُّعفاءَ، وصِلِ الرَّحِمَ، وابتَغِ بِذلكَ وَجْهَ اللهِ تعالى وعِزّةَ أمْرِه، والتمِسْ فيه ثَوابَه والدّارَ الآخِرةَ. واجتنِبْ سُوءَ الأهواءِ، والجَوْرَ، واصْرِفْ عنهُما رأيَكَ، وأظهِرْ بَراءتَكَ مِن ذلكَ لِرَعيّتِكَ. وأنعِمْ بالعَدْلِ سِياستَهم، وقُمْ بِالحَقِّ فيهم، وبالمعرفةِ التي تنتهي بِكَ إلى سبيلِ الهُدى.

- وامْلِكْ نفسَكَ عندَ الغضَب. وآثِرِ الوَقارَ والحِلْمَ، وإيّاكَ والحِدَّةَ والطَّيْشَ والغُرورَ فيما أنتَ بسَبيلِه. وإيّاكَ أن تقولَ إنّي مُسَلَّطٌ أفعَلُ ما أشاءُ؛ فإنّ ذلكَ سَريعٌ فِيكَ إلى نَقْصِ الرّأيِ وقِلّةِ اليقينِ باللهِ وَحْدَه لا شريكَ له. وأخلِصْ للهِ وَحْدَهُ النّيّةَ فيه واليقينَ به.

- واعلَمْ أنّ المُلْكَ للهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ ويَنزِعُهُ مِمّن يَشاءُ. ولَنْ تجِدَ تغيُّرَ النّعمةِ وحُلولَ النّقمةِ إلى أحَدٍ أسْرَعَ مِنه إلى جَهَلةِ النّعمةِ مِن أصحابِ السُّلْطانِ والمَبْسُوطِ لهم في الدَّوْلةِ، إذا كفروا بنِعَمِ اللهِ وإحسانِه، واستطالوا بما آتاهمُ اللهُ مِن فَضْلِه.

- ودَعْ عنْكَ شَرَهَ نفسِكَ. ولتكُنْ ذَخائرُكَ وكُنوزُكَ التي تَذْخَرُ وتكنِزُ: البرَّ، والتّقوى، والمَعْدَلَةَ، واستصلاحَ الرّعيّةِ، وعِمارةَ بلادِهم، والتّفقُّدَ لأمورِهم، والحِفْظَ لِدمائهم، والإغاثةَ لِمَلْهوفِهم. واعلَمْ أنّ الأموالَ إذا كثُرَتْ وذُخِرَتْ في الخزائنِ لا تُثْمِرُ، وإذا كانَتْ في إصلاحِ الرّعيّةِ وإعطاءِ حُقوقِهم وكَفِّ الأذيّةِ عنهم نمَتْ ورَبَتْ وصلَحَتْ بها العامّةُ وتزيّنتْ بها الوُلاةُ، وطابَ بها الزّمانُ، واعتُقِدَ فيها العِزُّ والمَنَعةُ. فَلْيكُنْ كَنْزُ خزائنِكَ تفريقَ الأموالِ في عِمارةِ الإسلامِ وأهْلِه، ووَفِّرْ مِنه على أولياءِ أميرِ المؤمنينَ قِبَلَكَ حقوقَهم، وأوفِ رعيّتَكَ مِن ذلكَ حِصَصَهم، وتعهّدْ ما يُصْلِحُ أمورَهم ومَعايشَهم؛ فإنّكَ إذا فعَلْتَ ذلكَ قَرّتِ النّعمةُ علَيكَ، واستوجَبْتَ المَزيدَ مِن الله تعالى، وكنتَ بذلكَ على جِبايةِ خَراجِكَ وجَمْعِ أموالِ رعيّتِكَ وعمَلِكَ أقدَرَ، وكان الجميعُ لِما شَمِلَهم مِن عَدْلِكَ وإحسانِكَ أسْلَسَ لِطاعتِكَ، وأطيبَ أنفُساً لِكُلِّ ما أردتَ. فاجْهَدْ نفسَكَ فِيما حَدّدتُ لَكَ في هذا البابِ، ولتَعْظُمْ حِسْبتُكَ فيه؛ فإنّما يبقى مِن المال ما أُنفِقَ في سبيلِ حَقِّه. واعرِفْ لِلشّاكرينَ شُكْرَهم، وأَثِبْهُمْ علَيه.

– وإيّاكَ أن تُنسِيَكَ الدّنيا وغُرورُها هَوْلَ الآخِرةِ، فتتهاونَ بِما يَحِقُّ علَيكَ؛ فإنّ التّهاوُنَ يُورِثُ التّفريطَ، والتّفريطَ يُورِثُ البَوارَ. وليكُنْ عمَلُكَ لِلهِ عَزَّ وجَلَّ وفيه، تبارَكَ وتعالى. وارْجُ الثّوابَ مِنْهُ؛ فإنّ الله سُبحانَه قد أسبغَ علَيكَ نعمتَه في الدّنيا، وأظهَرَ لدَيْكَ فضْلَهُ، فاعتصِمْ بالشُّكْرِ، وعلَيهِ فاعتمِدْ، يَزِدْكَ اللهُ خَيْراً وإحساناً؛ فإنّ اللهَ يُثيبُ بِقدرِ شُكرِ الشّاكِرينَ، وإحسانِ الـمُحْسِنينَ، وقَضَى الحَقَّ فيما حَمَّلَ مِن النِّعَمِ، وألبسَ مِن العافيةِ والكرامة.

– وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْباً، وَلَا تُمالِئَنَّ حاسِداً، وَلَا تَرْحَمَنَّ فاجِراً، وَلَا تَصِلَنَّ كَفوراً، وَلَا تُداهِنَنَّ عَدُوًّا، ولَا تُصدِّقَنَّ نَمّاماً، وَلَا تأمَنَنَّ غَدّاراً، وَلَا تُوالِيَنَّ فاسِقاً، ولا تَتّبِعَنَّ غاوياً، ولا تَحْمَدَنَّ مُرائياً، وَلَا تَحْقِرَنَّ إنساناً، وَلَا تَرُدّنَّ سائلاً فقيراً، وَلَا تُحَسِّنَنَّ باطلاً، وَلَا تُلاحِظَنَّ مُضْحِكاً، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْداً، ولا تَزْهُوَنَّ فَخْراً، وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَباً، وَلَا تأتِيَنَّ بَذْخاً، وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحاً، وَلَا تركبَنَّ سَفَهاً، وَلَا تُفرِّطَنَّ في طَلَبِ الآخِرة، وَلَا تَرْفعَنَّ للنَّمّامِ عَيْناً، ولا تَغمِضَنَّ عن الظّالِمِ رَهْبةً مِنه أو مَخافةً، وَلَا تُبطِلَنَّ ثوابَ الآخِرةِ بالدّنيا.

– وأكثِرْ مُشاوَرةَ الفُقَهاءِ. واستعمِلْ نفسَكَ بالحِلْمِ. وخُذْ عن أهْلِ التّجارِبِ وذَوِي العَقْلِ والرّأيِ والحِكْمة. وَلَا تُدْخِلَنَّ في مَشورتِكَ أهْلَ الدِّقّةِ والبُخْلِ، ولا تَسْمَعَنَّ لهم قَولاً؛ فإنّ ضَرَرَهم أكثَرُ مِن مَنفعتِهم.

– ولَيْسَ شيءٌ أسرعَ فَساداً لِما استقبَلْتَ فيه أمْرَ رَعيّتِكَ مِن الشُّحّ. واعْلَمْ أنّكَ إذا كُنْتَ حَريصاً كنْتَ كثيرَ الأخْذِ، قليلَ العطيّة، وإذا كنْتَ كذلكَ لم يستقِمْ لَكَ أمرُكَ إلّا قليلاً؛ فإنّ رَعيّتَكَ إنّما تَعقِدُ على مَحبّتِكَ بالكَفِّ عن أموالِهم، وتَرْكِ الجَوْرِ عليهم، ويَدومُ صَفاءُ أوليائِكَ لَكَ بالإفضالِ علَيهم، وحُسْنِ العطيّةِ لهم. فاجتَنِبِ الشُّحَّ، واعلَمْ أنّه أَوّلُ ما عَصَى به الإنسانُ رَبَّه، وأنّ العاصِيَ بِمَنْزِلةِ خِزْيٍ، وهو قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلّ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فسَهِّلْ طَريقَ الجُودِ بالحَقِّ، واجْعَلْ لِلْمُسْلمينَ كُلِّهم مِن فَيْئِكَ حَظًّا ونصيباً، وأَيْقِنْ أنّ الجُودَ مِن أفضَلِ أعمالِ العِباد، فأَعدِدْهُ لنفسِك خُلُقاً، وارْضَ به عَمَلاً ومَذْهَباً.

– وتفقّدْ أُمورَ الجُنْدِ في دَواوينِهم ومَكاتِبهم، وأَدْرِرْ علَيهم أرزاقَهم، ووسِّعْ علَيهم في مَعايشِهم؛ لِيُذْهِبَ بذلِكَ اللهُ فاقتَهم، ويُقوِّمَ لكَ أمْرَهم، ويَزيدَ به قُلوبَهم في طاعتِكَ وأَمْرِكَ خُلوصاً وانشراحاً. وحَسْبُ ذي سُلْطانٍ مِن السّعادةِ أن يكونَ على جُندِه ورَعيّتِه ذا رَحْمةٍ في عَدْلِهِ وحِيطتِه وإنصافِه وعِنايتِهِ وشَفَقتهِ وبِرِّه وتوسعتِه. فزايِلْ مَكْروهَ أَحَدِ البابَيْنِ، باستشعارِ فَضْلِ البابِ الآخَرِ ولُزومِ العمَلِ به، تَلْقَ إن شاء اللهُ نَجاحاً وصَلاحاً وفَلاحاً.

– واعلَمْ أنّ القضاءَ مِن الله تعالى بالمكانِ الذي ليسَ فَوْقَه شيءٌ مِن الأمورِ؛ لِأنّه مِيزانُ اللهِ الذي يعتدِلُ علَيه الأحوالُ في الأرض، وبإقامةِ العَدْلِ في القضاءِ والعمَلِ تَصلُحُ الرّعيّةُ، وتُؤمَنُ السُّبُلُ، ويَنتصِفُ المظلومُ، ويأخذُ النّاسُ حقوقَهم، وتَحسُنُ المعيشةُ، ويُؤدَّى حَقُّ الطّاعةِ، ويَرزُقُ اللهُ العافيةَ والسّلامةَ، ويقومُ الدّينُ، وتُجْرَى السُّنَنُ والشّرائعُ، وعلى مَجاريها ينتجِزُ الحَقُّ والعَدْلُ في القضاء.

– واشتدَّ في أمْرِ الله عَزَّ وجَلَّ. وتَورَّعْ عن النَّطْفِ[٢] وامْضِ لإقامةِ الحُدود. وأقْلِلِ العَجَلةَ، وابعُدْ مِن الضّجَرِ والقَلَق. واقنَعْ بالقِسَمِ، ولتسكُنْ رِيحُكَ، ويَقَرَّ جِدُّكَ. وانتفِعْ بتجربتِكَ. وانتبِهْ في صَمْتِكَ، واسدُدْ في مَنْطِقِكَ. وأنصِفِ الخَصْمَ. وقِفْ عندَ الشُّبْهةِ. وابلُغْ في الحُجّة.

– ولا يأخُذْكَ في أحَدٍ مِن رَعيّتِكَ مُحاباةٌ، وَلَا مُحاماةٌ، ولا لَوْمُ لائمٍ. وتثبّتْ، وتأنَّ، وراقِبْ، وانظُرْ، وتدبَّرْ، وتفكَّرْ، واعتبِرْ، وتَواضَعْ لِربِّكَ.

---

(٢) القَذْفُ بالفُجور.

وارأفْ بجَميعِ الرّعيّة. وسَلِّطِ الحَقَّ على نفسِكَ. وَلَا تُسْرِعَنَّ إلى سَفْكِ دَمٍ؛ فإنّ الدِّماءَ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ بمَكانٍ عَظيمٍ انتهاكاً لها بغَيرِ حَقِّها.

– وانظُرْ هذا الخَراجَ الذي قد استقامَتْ علَيه الرَّعيّةُ، وجعَلَهُ اللهُ للإسلامِ عِزًّا ورِفْعةً، ولِأَهْلِهِ سَعةً ومَنَعةً، ولِعَدُوِّهِ وعَدُوِّهم كَبْتاً وغَيظاً، ولِأهلِ الكُفْرِ مِن مُعاديهم ذُلًّا وصَغاراً، فوزِّعْهُ بينَ أصحابِه بالحقِّ والعَدْلِ والتّسويةِ والعُمومِ فيه، ولا ترفَعَنَّ مِنه شيئاً عن شَريفٍ لِشَرَفِه، ولا عن غَنيٍّ لِغِناهُ، وَلَا عن كاتِبٍ لَكَ، وَلَا عن أحَدٍ مِن خاصّتِكَ، وَلَا تأخُذَنَّ مِنه فوقَ الاحتمالِ له. وَلَا تُكلِّفَنَّ أَمْراً فيه شَطَطٌ. واحْمِلِ النّاسَ كُلَّهم على أَمْرِ الحَقّ؛ فإنّ ذلكَ أجْمَعُ لِأُلفتِهم، وألْزَمُ لرِضاءِ العامّةِ.

– واعلَمْ أنّكَ جُعِلْتَ بوِلايتِكَ خازناً وحافِظاً وراعِياً، وإنّما سُمِّيَ أهْلُ عمَلِكَ رَعيّتَكَ؛ لِأنّكَ راعِيهم وقَيِّمُهم: تأخُذُ مِنهم ما أعطَوْكَ مِن عَفْوِهم ومَقْدِرتِهم، وتُنفِقُه في قِوامِ أمْرِهم وصَلاحِهم وتَقْويمِ أَوَدِهم. فاستَعْمِلْ علَيهم في كُوَرِ[٣] عَمَلِكَ ذَوِي الرّأيِ والتّدبيرِ والتّجربةِ والخِبْرةِ بالعَمَلِ، والعِلْمِ بالسّياسةِ، والعَفافِ. ووَسِّعْ علَيهم في الرّزقِ؛ فإنّ ذلكَ مِن الحُقوقِ اللّازمة لَكَ فيما تقلّدتَ وأُسْنِدَ إلَيْكَ. ولا يَشْغَلْكَ عنه شاغِلٌ، وَلَا يَصْرِفْكَ عنه صارِفٌ، فإنّكَ متى آثَرْتَهُ وقُمْتَ فيه بالواجبِ استدعَيْتَ به زيادةَ النِّعْمةِ مِن ربِّكَ، وحُسْنَ الأُحْدوثةِ في عمَلِكَ، واستَجْرَرْتَ به المَحبّةَ مِن رَعيّتِكَ، وأُعِنْتَ على الصَّلاحِ؛ فدَرَّتِ الخَيْراتُ بِبَلَدِكَ، وفَشَتِ العمارةُ بناحيتِكَ، وظهَرَ الخِصْبُ في كُوَرِكَ، فكَثُرَ خَراجُكَ، وتوفَّرَتْ أموالُكَ، وقَويتَ بذلكَ على ارتياضِ جُنْدِكَ، وإرضاءِ العامّةِ بإفاضةِ العَطاءِ فيهم مِن نَفْسِكَ، وكُنْتَ محمودَ السّياسةِ، مَرْضِيَّ العَدْلِ في ذلك عنْدَ عَدُوِّكَ، وكُنْتَ في أُمورِكَ كُلِّها

(٣) جمعُ كُورة: المدينةُ والصُّقْعُ.

ذا عَدْلٍ وقوّةٍ وآلةٍ وعُدّة. فَنافِسْ في هذا، وَلَا تُقدِّمْ علَيه شيئاً، تُحْمَدْ مَغبَّةُ[٤] أَمْرِكَ، إن شاء الله.

- واجعَلْ في كُلِّ كُورةٍ مِن عمَلِكَ أَميناً يُخبِرُكَ أخبارَ عُمّالِكَ، ويكتُبُ إليكَ بسِيرتِهم وأعمالِهم، حتّى كأنّكَ معَ كُلِّ عامِلٍ في عمَلِه مُعايِنٌ لِأَمْرِه كلِّه. وإن أردتَّ أن تأمُرَه بأمْرٍ فانظُرْ في عَواقِبِ ما أردتَّ مِن ذلكَ: فإنْ رأيتَ السّلامةَ فيه والعافيةَ ورَجَوْتَ فيه حُسْنَ الدّفاعِ والنُّصحِ والصُّنْعِ فأَمْضِهِ، وإلّا فتوقَّفْ عنه، وراجِعْ أَهْلَ البصَرِ والعِلْمِ به، ثُمّ خُذْ فيه عُدّتَه؛ فإنّه رُبّما نظَرَ الرّجُلُ في أمْرٍ مِن أمْرِهِ وقد واتاهُ على ما يهوَى فقَوّاهُ ذلكَ وأعجبَه، وإن لم ينظُرْ في عَواقِبِه أهلكَهُ، ونقضَ علَيه أمْرَه.

- فاستَعْمِلِ الحَزْمَ في كُلِّ ما أردتَّ، وباشِرْهُ بعْدَ عَوْنِ الله عَزَّ وجَلَّ بالقوّةِ. وأكثِرِ استخارةَ ربِّكَ في جَميعِ أُمورِكَ. وافرُغْ مِن عَمَلِ يومِكَ، وَلَا تُؤخِّرْهُ لِغَدِكَ، وأكثِرْ مُباشَرتَه بنَفْسِكَ؛ فإنّ لِغَدٍ أُموراً وحَوادِثَ تُلْهيكَ عن عمَلِ يومِكَ الذي أخّرتَ. واعلَمْ أنّ اليَوْمَ إذا مضى ذهَبَ بما فيه، فإذا أخّرْتَ عمَلَه اجتمَعَ علَيكَ عَمَلُ يومَيْنِ، فشغَلَكَ ذلكَ حتّى تُعْرِض عنه. فإذا أمضَيْتَ لِكُلِّ يومٍ عمَلَه أرَحْتَ نفْسَكَ وبدَنَكَ، وأحكَمْتَ أُمورَ سُلْطانِكَ.

- وانظُرْ أحرارَ النّاسِ، وذَوِي الشّرَفِ مِنهم، ثمّ استَيْقِنْ صَفاءَ طَويّتِهم وتهذيبَ مَودّتِهم لكَ ومُظاهَرتَهم بالنُّصْحِ والـمُخالَصةِ على أمْرِك، فاستَخْلِصْهم وأحسِنْ إلَيهم.

- وتعاهَدْ أهْلَ البُيوتاتِ مِمَّنْ قد دخلَتْ علَيهم الحاجةُ، فاحتَمِلْ مؤونَتَهم، وأَصْلِحْ حالَهم حتّى لا يجدوا لِخَلّتهم[٥] مُنافِراً.

---

(٤) عاقبتُه ونتيجتُه.

(٥) الخَلّةُ: الحاجةُ والفقْرُ.

– وأفْرِدْ نفسَكَ للنّظَرِ في أُمورِ الفُقَراءِ والـمَساكينِ، ومَن لا يقْدِرُ على رَفْعِ مَظْلِمةٍ إليكَ، والـمُحتَقَرِ الذي لا عِلْمَ له بطَلَبِ حَقِّه، فاسأَلْ عنه أحْفَى مَسْأَلةٍ، ووكِّلْ بأمثالِهِ أهْلَ الصَّلاحِ مِن رَعيّتِكَ، ومُرْهُم برَفْعِ حَوائجِهم وخِلالِهم إلَيكَ؛ لتنظُرَ فيها بِما يُصْلِحُ اللهُ أمْرَهم.

– وتعاهَدْ ذَوي البأساءِ ويَتاماهم وأرامِلَهم، واجعَلْ لهم أرزاقاً مِن بَيْتِ المال اقتداءً بأميرِ المؤمنينَ، أعزَّهُ الله تعالى، في العَطْفِ علَيهم والصِّلة لهم؛ لِيُصْلِحَ اللهُ بذلكَ عَيْشَهم، ويَرزُقَكَ به بَرَكةً وزيادةً. وأَجْرِ لِلْأَضِرّاءِ[٦] مِن بَيْتِ المال. وقَدِّمْ حَمَلةَ القرآنِ مِنهم والحافِظينَ لِأكثَره، في الجِرايةِ، على غَيْرِهم.

– وانصِبْ لِمَرْضى الـمُسْلِمينَ دُوراً تُؤويهم، وقُوّاماً يَرْفُقونَ بهم، وأطبّاءَ يعالجونَ أسقامَهم، وأسعِفْهم بِشَهواتِهم ما لم يُؤدِّ ذلكَ إلى سَرَفٍ في بَيْتِ المال.

– واعلَمْ أنّ النّاسَ إذا أُعطُوا حُقوقَهم وأفضلَ أَمانِيِّهم لم يُرْضِهم ذلكَ، ولم تَطِبْ أنفسُهم دونَ رَفْعِ حَوائجِهم إلى وُلاتِهم، طَمَعاً في نَيْلِ الزّيادةِ وفَضْلِ الرِّفْقِ مِنهم. ورُبّما بَرِمَ[٧] الـمُتَصَفِّحُ لِأمورِ النّاسِ لِكَثْرةِ ما يَرِدُ علَيه، ويشغَلُ فكْرَه وذهنَه مِنها ما يَنالُه به مؤونةٌ ومَشَقّةٌ. وليسَ مَنْ يرغَبُ في العَدْلِ، ويعْرِفُ مَحاسِنَ أُمورِه في العاجِلِ وفَضْلَ ثوابِ الآجِلِ، كالذي يَسْتَقِلُّ ما يُقرِّبُهُ إلى الله تعالى ويلتمِسُ رحمتَه به.

– وأكثِرِ الإِذْنَ للنّاسِ علَيكَ، وأبرِزْ لهم وَجْهَكَ، وسَكِّنْ لهم أَحْراسَكَ، واخفِضْ لهم جَناحَكَ، وأظهِرْ لهم بِشْرَكَ، ولِنْ لهُمْ في المسألةِ والـمَنْطِقِ، واعطِفْ علَيهم بجُودِكَ وفَضْلِكَ.

---

(٦) جمعُ ضَرير: الذّاهبُ البصَر.

(٧) سَئِمَ ومَلَّ.

- وإذا أَعطَيْتَ فأَعْطِ بسَمَاحةٍ، وطِيبِ نَفْسٍ، والتماسٍ لِلصَّنيعةِ والأجْرِ، غيرَ مُكَدِّرٍ ولا مَنّان؛ فإنّ العَطِيّةَ على ذلكَ تِجارةٌ مُرَبّحةٌ، إن شاء الله تعالى.

- واعتَبِرْ بِما تَرَى مِن أمورِ الدّنيا، ومَن مَضَى مِن قَبْلِكَ مِن أهْلِ السُّلْطانِ والرّياسةِ في القُرونِ الخاليةِ والأُمَمِ البائدة، ثمّ اعتصِمْ في أَحْوالِكَ كُلِّها بأَمْرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى والوقوفِ عندَ مَحَبّتِه والعَمَلِ بشَريعتِه وسُنّتِه، وبإقامةِ دِينِه وكتابِه. واجتَنِبْ ما فارقَ ذلكَ وخالَفَه ودَعا إلى سَخَطِ الله عَزَّ وجَلَّ.

- واعْرِفْ ما يجْمَعُ عُمّالُكَ مِن الأموالِ وما يُنفِقُونَ مِنها، ولا تجمَعْ حَراماً، ولا تُنفِقْ إسرافاً.

- وأكثِرْ مُجالَسةَ العُلَماءِ ومُشاورَتَهم ومُخالطتَهم.

- وليكُنْ هَواكَ اتّباعَ السُّنَنِ وإقامتَها وإيثارَ مَكارِمِ الأخلاقِ ومَعاليها. وليكُنْ أكْرَمُ دُخلائِكَ وخاصّتِكَ علَيكَ مَن إذا رأى عَيْباً فيكَ لم تمنَعْهُ هَيبتُكَ مِن إنهاءِ ذلكَ إليكَ في سِرٍّ، وإعلامِكَ بما فيه مِن النَّقْصِ؛ فإنّ أولئكَ أنصَحُ أوليائِكَ ومُظاهِريكَ.

- وانظُرْ عُمّالَكَ الذينَ بحَضْرتِكَ وكُتّابَكَ، فَوَقِّتْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنهم في كُلِّ يومٍ وقتاً يدخُلُ علَيكَ فيه بكُتُبِه ومُؤامَرتِه وما عنْدَه مِن حَوائجِ عُمّالِكَ وأَمْرِ كُورِكَ ورَعيّتِكَ، ثُمّ فَرِّغْ لِما يُورِدُه علَيكَ مِن ذلكَ سَمْعَكَ وبصَرَكَ وفَهْمَكَ وعَقْلَكَ، وكرِّرِ النّظَرَ إليه والتّدَبُّرَ له، فما كان مُوافِقاً لِلْحَزْمِ والحَقِّ فأَمْضِه، واستَخِرِ اللهَ عَزَّ وجَلَّ فيه، وما كان مُخالِفاً لِذلكَ فاصْرِفْهُ إلى التّثبُّتِ منه والـمَسْألةِ عنه.

- وَلَا تَمْنُنْ على رَعيّتِكَ، وَلَا على غَيْرِهم، بِمَعْروفٍ تُؤتيهِ إلَيهِمْ، ولا تَقْبَلْ مِن أحَدٍ مِنهم إلّا الوفاءَ والاستقامةَ والعَوْنَ في أُمورِ أميرِ المؤمنينَ، ولا تَضَعَنَّ المعروفَ إلّا على ذلكَ.

– وتفهَّمْ كِتابي إليكَ، وأكثِرِ النّظَرَ فيه والعمَلَ به.

– واستَعِنْ باللهِ على جَميعِ أُمورِكَ، واستَخِرْه؛ فإنّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ معَ الصَّلاحِ وأهْلِه.

– وليكُنْ أعظَمُ سِيرتِكَ وأفضَلُ رَغْبتِكَ ما كان لِلّهِ عَزَّ وجَلَّ رِضاً، ولِدينِه نِظاماً، ولأهْلِهِ عِزًّا وتمكيناً، وللذّمّةِ والمِلّةِ عَدْلاً وصَلاحاً.

– وأنا أسألُ اللهَ، عَزَّ وجَلَّ، أن يُحْسِنَ عَوْنَكَ وتوفيقَكَ ورُشْدَكَ وكَلاءَكَ، وأن يُنزِلَ عليكَ فضْلَهُ ورَحْمتَه بتَمامِ فَضْلِهِ علَيكَ وكرامتِه لكَ، حتّى يجعَلَكَ أفضَلَ أمثالِكَ نَصيباً، وأوفرَهم حَظًّا، وأَسْناهم ذِكْراً وأَمْراً، وأن يُهلِكَ عَدُوَّكَ ومَن ناواكَ وبَغَى عليكَ، ويرزقَكَ مِن رَعيّتِكَ العافيةَ، ويَحْجُزَ الشّيطانَ عنكَ ووَساوِسَه، حتّى يَستَعْلِيَ أمْرُكَ بالعزِّ والقوّةِ والتّوفيق، إنّه قَريبٌ مُجيب.

* * *